جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم التاريخ

-محاضرات مقياس تاريخ الجزائر الثقافي الحديث والمعاصر.

- سنة ثانية تاريخ (2022-2023).

- السداسي الرابع.

الاستاذ: عبد القادر فلوح.

مقدمة:

يعد موضوع تاريخ الجزائر الثقافي في الفترة الحديثة والمعاصرة، من المواضيع الهامة في تاريخ الجزائر العام، لإرتباطه بتكوين الإنسان الجزائري الذي يبقى باستمرار متمسكا بالمقومات الدينية والتاريخية التي ورثها. ومن هنا تكمن أهمية البحث في الأوضاع الثقافية للجزائر في فترات مختلفة، وكثيرة تلك الأبحاث التاريخية التي استطاعت، رغم صعوبة الوصول للمصادر الأساسية، أن تؤكد على أن المجتمع الجزائري يمتلك كل المقومات الثقافية التي تجعله رائدا في منطقة المغرب الإسلامي، كما انفرد بخاصية ثقافية تقوم على أصالة إنتاجه الثقافي وتنوعه، ما تركه يحافظ على تقاليده في المجال الثقافي.

وتقوم عناصر المادة للسداسي الرابع على العناصر التالية:

1-التعليم والعلماء.

أ- السياسة التعليمية.

ب- التعليم ومراحله.

ج- وسائل التعليم (المعلمون – التلاميذ – البرامج التعليمية – المكتبات).

2- كبار المعلمين ومكانة العلماء ووظائفهم وعلاقة العلماء بالحكام.

1-التعليم والعلماء.

أ- السياسة التعليمية:

نحاول في هذا الصدد، تفسير وشرح هذا العنصر من خلال ما ذكره المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله في مؤلفه تاريخ الجزائر الثقافي في الجزء الأول: " ... **أن الدولة لم يكن لها أي تدخل في هذا الميدان ، فلم**

يكن للدولة الجزائرية عندئذ وزير لشؤون التعليم ولا مدير ولا وكيل أو نحو ذلك من الوظائف الرسمية....".

كانت حواضر الجزائر قبل مجيء العثمانيين، تزخر بمراكز للإشعاع العلمي والثقافي، من مدينة تلمسان مرورا بمدن مازونة، وبجاية، وانتهاء بمدن بونة وقسنطينة، حيث ازدهرت العلوم وأنواع الفنون، ما سمح بظهور عائلات وأسر علمية، ما أدى إلى انتشار التعليم في المدن والأرياف. وإذا كانت الممارسة التعليمية تتأثر بعوامل داخلية وخارجية، تجعلها تصاب بالتراجع والانحطاط أحيانا، غير أن الوجود العثماني لم يقف حائلا في وجه تطور حركة العلوم والتعليم، بل إن الكثير من العثمانيين العامة منهم وبعض الحكام من الدايات والبايات كانوا ينشطون بما حبسوه من عقارات على المساجد والزوايا.

إن التعليم في الفترة العثمانية بالجزائر، لم يكن نظاما معتمدا من طرف السلطة بشكل رسمي، وهو ما فسره أبو القاسم سعد الله في الفقرة السابقة. ولا نستطيع تفسير سياسة السلطة في هذا المجال، إلا بترك الحرية للمجتمع الجزائري في الاستمرار في عملية التعلم، الذي كان قائما على الطابع الذاتي الحر من خلال انتشار مؤسسات تعليمية متنوعة اشتهرت بها البلاد من كتّاب وزوايا ومساجد حملت حركة التعليم التقليدي السائد قبل وصول العثمانيين للجزائر.

لقد كان التعليم الحر يقوم على مبادرات الأفراد وجهود المؤسسات الخيرية، حتى ارتقت هذه المبادرات الى أن تتحول الى ظاهرة اجتماعية تميز بها المجتمع الجزائري في المدن والأرياف. فقد كان سكان المدن والقرى على حد سواء، ينظمون بطرقهم وبحرية تعليم أبنائهم القرآن والحديث والعلوم العربية والإسلامية، حيث كانت علوم القرآن والحديث أساس التعليم في جميع مراحله. إن الحضور السكاني في الاهتمام بالنشاط التعليمي بالجزائر، كان من العوامل التي أدت الى انتشار التعليم في المدن والقرى.

لقد كان التعليم بسيطا غير ملائم لتطور العصر، وكانت السلطة لا تتكفل بالإنفاق عليه، إنما كان السكان من خلال مؤسسات الأوقاف والزكاة هم من يقومون بالعملية في آخر المطاف. غير إن معظم المصادر المحلية والأجنبية أجمعت على أن التعليم كان منتشرا في الجزائر، ويدل ذلك على كثرة العلماء والمعلمين. لقد ورد ذكرهم مثلا في كتب التراجم مثل كتاب تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي .

وإذا كان لا بد من تقديم ملاحظة هامة في مدى اهتمام السلطة الجزائرية بالتعليم، من خلال جهود حكام الأقاليم مثل جهود الباي صالح بن إبراهيم باي الشرق الجزائري ومحمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي الملقب بمحمد الكبير باي الغرب الجزائري.

يعتبر صالح باي (1771-1792) من أبرز بايات الجزائر في الشرق الجزائري، عرفت فترة حكمه ازدهارا وانتعاشا في ميدان التعليم، فقد اجتمع العلماء حوله وبنى المساجد والمدارس في مقاطعته. وهو ما نلاحظه فيما كتبه اوجين فايست في كتابه تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792-1873م، (... وبما أننا نتحدث عن التعليم، فإن القارئ قد يكون ممنونا إذا أطلعناه هنا على النظام المتبع في عهد صالح باي داخل مؤسسات التعليم العمومي، فإذا قارناه بالنظام المتبع في نفس الوقت داخل ثانويتنا في فرنسا، فإننا نرى أنه لم يكن أقل منه مستوى....).

لقد أصدر صالح باي في شهر سبتمبر من سنة 1780م، قانونا ينظم ميدان التعليم في المقاطعة من خلال تنظيم المدارس وهياكلها، مع وضع قوانين صارمة لتنظيم طريقة التعليم، تشمل وضعية الطلاب والمعلمين والعمال، كما تمّ إقرار وضع صارم للتعليم الداخلي من خلال احترام القانون الداخلي للمؤسسة.

*** بنود القانون:**

- تشمل المدرسة على مسجد وعلى خمس غرف تخصص واحدة منها للأستاذ والأربع الباقية للطلبة وعلى غرفة للوضوء للمهملات.
- عدد الطلبة الداخليين في كل مدرسة ثمانية بمعدل 2 في كل غرفة .
- يوجد وكيل مكلف بالمداخيل والمصاريف وبواب لكنس المدرسة وإشعال المصابيح في القاعة المخصصة للصلاة.
- يبلغ مرتب الأستاذ حوالي 30ريالا سنويا ومرتب الوكيل 8 ريالات والبواب يتقاضى 7 ريالات ويمنح لكل طالب 6ريالات.
- يقوم الأستاذ بإلقاء 3 دروس في اليوم وهي مقسمة في الصباح والزوال وفي العصر.
- لا يقبل في المدرسة إلا الشبان الذين يحفظون القرآن جيدا.
- كل تلميذ يقضي 10 سنوات في المدرسة دون تحصيل علمي متقدم يطرد ويعوض بآخر.
- تحدد العطلة 20 يوما أو30 يوما في السنة.

لقد جاء هذا القانون في إطار اهتمام السلطة الحاكمة مركزياً أو في المقاطعات بميدان التعليم من خلال بعثه من جديد. وايجابيات القانون يمكن حصرها في النقاط التالية:

- تشجيع واهتمام حكام المقاطعات بميدان التعليم.
- التنظيم المحكم والدقيق لسير عملية التعليم.
- فتح المدارس لأبناء الأسر الجزائرية في المقاطعة لتعليم أبنائها.
- الاهتمام بالعلوم الشرعية وهي العمود الفقري لأصالة المجتمع الجزائري.
- ومن انعكاسات القانون مستقبلا، بناء المدارس والمساجد والزوايا في مدن المقاطعة بمدينة قسنطينة وعنابة، وظهور عدد من العلماء ساهموا في ازدهار ميدان التعليم في المنطقة، بقت طويلا صامدة في وجه الأعداء.

ب- التعليم ومراحله: -

- كان التعليم حرا ولا يخضع لسيطرة الدولة ، لقد كان سكان لمنطقة أو المدينة والقرية ينظمون بوسائلهم تعليم القرآن والحديث. وكان التعليم يعتمد على حفظ القرآن الكريم والأحاديث والمتون الشعرية وغيرها. وأصبح الوقف هو الذي يغذي ويدعم المدارس. وتذكر المصادر ان الجزائر عرفت ازدهارا في مجال التعليم قبل الاحتلال الفرنسي، ويدل ذلك على انتشار المدارس والمعاهد العلمية.

- وتمثلت أطوار التعليم في ثلاث مراحل وهي: -

-**المرحلة الابتدائية**: يقوم الطفل الجزائري من سن5 و6 بتعلم القراءة والكتابة وتحفيظ سور من القرآن الكريم وبعض الأحاديث وتنتشر مدارس التعليم الابتدائي بكل مدن الجزائر وبوادها. والتلميذ الذي تكون لديه ملكات حفظ كبيرة يرتقي الى **المرحلة الثانوية** التي يتميز فيها التعليم بالشرح والإملاء، كما تضاف مواد أخرى للتعلم مثل مواد الفقه والنحو والصرف والبلاغة. وإذا نجح التلميذ في هذه المرحلة، فانه يتوجه الى المدن الكبرى مثل مدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان التي تتوفر على مدارس عليا تقدم **تعليما عاليا** من طرف فقهاء وأساتذة لهم مكانة علمية بالمنطقة. وكانت المدارس الكبرى تتكفل بإيواء الطلبة القاطنين بعيدا. أما فيما يتعلق بالبرامج فقد تكاد تكون متشابهة في أغلب البلاد الإسلامية. وقد ذكر **أبو القاسم سعد الله (رحمه الله)** أن دروس مساجدها الكبرى تضاهي ما تقدمه بعض المساجد في المشرق الإسلامي لتنوع وتعدد الدراسات. وإذا تفوق الطالب في هذه المرحلة يجاز من طرف الأستاذ ليدخل بدوره مهمة التدريس أو يهاجر الى خارج الجزائر من اجل التعمق في العلوم.

- **وسائل التعليم:** تتطلب العملية التعليمية شروطا ضرورية مثل العناصر البشرية والمادية،مثل المعلمين والتلاميذ والكتب والمكتبات.

***المعلمون:** هو أساس العملية التعلمية والمثل الأعلى للتعلم، وهو الذي ينشر العلم في المجتمع وبين الناس بسلوكه وإرادته وشخصه. ويتوزع المعلمون مابين المدينة والريف وكل صنف له امتيازات خاصة مرتبطة بالظروف والمكان الذي يعمل فيه. ويسمى معلم الابتدائي بالمؤدب.

أما في المراحل العليا مثل الثانوي والعالي فيسمى بالمدرس والمعلم والأستاذ، ولم تكن هناك طريقة رسمية أو تنظيم إداري لتوظيف المؤدب من طرف السلطة المحلية، بل ترك الأمر لسكان المنطقة لاختيار الشخص المناسب للوظيفة الذي تتوفر فيه الأخلاق الفاضلة والصلاح والتقوى، وهو الذي يخضع لرقابة السكان وأولياء التلاميذ والأمور.

أما إذا تعلق بمرحلة الثانوي والعالي، فيتطلب تدخل السلطة في عملية التعيين من طرف السلطة المركزية وحكام المقاطعات، الذين يتم إشعارهم بأي تغيير في هذا الأمر، ومن خلال هذه التسمية الرسمية يتحصل الأستاذ على مزايا عديدة من المرتب القار الذي يتحصل عليه من إدارة الأوقاف والعطايا من طرف ساكنة المنطقة. وكان الأستاذ كثير التنقل من مدينة الى مدينة ومن مدرسة لأخرى، بسبب سمعته وشهرته العلمية أو لظروف سياسية واجتماعية.

***التلاميذ:**

كانت الأسر الجزائرية تلحق أطفالها بالمدارس والمساجد في سن مبكرة، عندما يتمم الطفل السادسة من العمر ليتحصل على مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وعند العاشرة من العمر يتحصل على

إجازة ختم القرآن، لينتقل بعدها الى المستوى الأعلى من التعليم.وقد عرفت حواضر الجزائر ومدارسها توافد عدد كبير من التلاميذ مثل مدينة قسنطينة التي كان يتوافد على مدارسها التسعين ما يفوق عن 1350 تلميذا، وكذا مثله في مدينة الجزائر ومدارسها الكبرى الـ 229 مدرسة وعدد تلامذتها الأكثر من 5580 تلميذ من مختلف الأعمار والأطوار، أما عن مدينة تلمسان فقد فاق عدد التلاميذ بها أكثر من2600 تلميذ، توزعوا على50 مدرسة، علما إن ساكنة مدينة تلمسان تبلغ في الغالب من الأحيان مابين 12 ألف الى15 ألف نسمة. وكانت المدينة تحتوي على مدرستين للتعليم العالي تردد عليها ما يقارب أكثر من 600 طالب.

***البرامج التعلمية:** لم تخرج البرامج التعليمية وطرق التدريس المنتهجة في مساجد الجزائر ومدارسها عن مثيلتها في اغلب البلاد الإسلامية، وكان اغلبها يميل الى الطرق التقليدية المرتبطة بالواقع الثقافي والاجتماعي المنتشر في اغلب هذه البلاد، ولا تخرج الجزائر عن ذلك.

لقد كانت مواد التدريس في المرحلة الابتدائية تقوم أساسا على عملية الحفظ وتعليم القراءة والكتابة والمبادئ الأولى للحساب ،وطريقة التدريس بسيطة تقوم على قيام المؤدب والمعلم بإثارة انتباه التلاميذ في إملاء المعلومات بصوت جوهري وعال عليهم وخاصة في مادة حفظ آيات القرآن الكريم.

أما برامج التعليم الثانوي والعالي فهي تخضع لسن التلاميذ وقدرتهم على الاستيعاب ومستوى الأستاذ الذي بدوره يقوم بتحديد مواد الدراسة، وبالتأكيد فقد أخذها عن سابقيه من الأساتذة أو استخلصها من تعليمه في حواضر داخل الجزائر وخارجها.

وتتميز برامج المرحلة الثانوية والعالية بالشرح والتحليل والتعمق وهي تنقسم إلى علوم روحية وعلوم عقلية وعلوم لفظية، أما العلوم الروحية أو النقلية فهي تتوزع على تفسير القرآن وعلم رواية الحديث وعلم أصول الدين والفقه. والعلوم العقلية فتشمل المنطق والجدل والفلسفة والحساب

وعلم الفلك وعلم التاريخ، أما العلوم اللفظية تتوزع على علم قواعد اللغة والبلاغة ومخارج الحروف وعلم البيان والبديع والقوافي.

وعن أهداف التعليم فهي في مجملها تقوم على مايلي :

- نشر التعليم ومبادئ العلوم المختلفة بين الناس والأطفال الصغار والكبار لأجل التعريف بدينهم .
- تكوين طلبة علم وعلماء وفقهاء حتى يستطيع هؤلاء مساعدة الدولة في أمور السياسة وأمور القضاء بتولية مناصب الإفتاء وكقضاة في المحاكم والإمامة في المساجد وأساتذة في المدارس في المساجد.
- طلب للعلوم المختلفة من علوم الدين الإسلامي وعلوم دنيوية أخرى من اجل تكوين الفرد الجزائري المسلم تكوينا يستطيع من خلال ذلك إفادة مجتمعه.

- **المكتبات**:

توفرت حواضر الجزائر الثقافية من الشرق الى الغرب على كتب كثيرة ومتنوعة في مجال الدراسات الإسلامية.وهي مخطوطات غاية في الأهمية، قام أصحابها أما بتأليفها، إذ كان اغلب علماء الجزائر يمتلكون مكتبة خاصة بهم، تحتوي على أمهات الكتب النفيسة من مختلف علوم العصر.كما توجد مكتبات في المساجد والمدارس الكبرى في مختلف المدن الجزائرية. كانت تحتوي على كتب ليس فقط من إنتاج جزائري بل يُؤتى بها من بلاد المغرب الإسلامي وبلاد مصر والحجاز والشام وكذا البلاد العثمانية، وهو ما وقفت عليه إدارة الاحتلال الفرنسي بعد1830م، حيث ذهبت لجمع ألاف الكتب والمخطوطات ليتم نهبها وسرقتها وتحويلها بعد ذلك الى المدن الفرنسية.

2- كبار المعلمين ومكانة العلماء ووظائفه وعلاقة العلماء بالحكام .

*** - علاقة العلماء بالحكام.**

لقد كان الاحتلال الإسباني عملا للتقارب بين السلطة والعلماء، بحيث وقف الطرفان ضده. لأن هذا الاحتلال يمثل خطرا صليبيا وهو امتداد لما حدث في جزيرة الأندلس الإسلامية وكذا الحروب الصليبية ونظرة الأوربيين العامة للمسلمين. ومن هنا جندت الزوايا السكان وإتباعها كمجاهدين للمقاومة، مع إثارة الحماس، كما شكلت رباطات ضد الاحتلال الاسباني والأوربي عامة.

وقاد المرابطون حركة الجهاد وتحالفوا مع السلطة المركزية وحكام المقاطعات ومن هنا سعت السلطة للتقرب من العلماء وشيوخ الزوايا وزعماء القبائل والفقهاء، وأغدقت لهم العطايا والامتيازات ومنحت لهم بعض الصلاحيات في تمثيل السلطة كسفراء لدى الباب العالي أو الإيالات العثمانية ببلاد المغرب الإسلامي وكذا بالمغرب الأقصى.

لقد تمتع العلماء والمرابطين في المدن بوضعية جيدة مقابل حيادهم في الأمور السياسية إرضاء للسلطة وتدخلهم في الأمور العامة لحساب السلطة. أما في الريف فقد اختلف الأمر، فقد كان علماء الزوايا والطرق الصوفية يرفضون أية سلطة عليهم وهو الأمر الذي جعلهم يستقرون في المناطق الريفية والجبلية بعيدا عن أعين السلطة.

وإذا كان أمر التقارب بينهما لعدة عوامل وأسباب، فإن التوتر والقطيعة سادت بين الطرفين بسبب ما كانت تقوم به السلطة المركزية وغيرها من فرض الضرائب التي أثقلت كاهل السكان،الأمر الذي دفع العلماء وشيوخ الزوايا الى محاربة السلطة ودعوة السكان للثورة عليها، وليست السياسة الضريبية المفروضة على السكان هي الوحيدة التي باعدت بين السلطة والعلماء، بل هناك عوامل أخرى مارستها السلطة على الرعية بمدن الجزائر وأريافها من ظلم واستبداد، أدت الى قطع رباط الاحترام وأدت الى قطيعة وحقد الرعية على السلطة.

ومن هنا ندرك أن عامل الجهاد لعب دورا ايجابيا في دعم فكرة التحالف بين الطرفين. ومن أسس سياسة السلطة المركزية بمدينة الجزائر من خلال موقفها من العلماء، الإبقاء على الاتصال معهم مع تقديم الامتيازات وإظهار الاحترام وتجنب أي ضرر ضد الأضرحة والزوايا باعتبارها ملاذا للفارين من بطش السلطة، والى جانب مراقبة شيوخ الزوايا بهدف تجنيب عدائهم خاصة في المناطق الغير مراقبة والبعيدة، إقناع شيوخ الطرق الصوفية بمدن الجزائر عن إثارة القبائل لمعادية للسلطة بمدينة الجزائر.

فقد كانت شعبية الداي والباي كان يحددها اهتمامه وعزمه على تحرير مدينة وهران لأن تحرير المدينة ورقة انتصار للسلطة في شمال إفريقيا لكسب الرعية وتأييد العلماء.

كان علماء الجزائر وفقهائها أشد الناس مشاركة في الجهاد ضد الأسبان أو الغير الأسبان، وعند ما قام الداي محمد بكداش على طرد الأسبان من مدينة وهران قصده الناس من كل منطقة، وكان طلبة العلم هم أشد الرجال في طلائع الناس ودعوى السلطان للجهاد والمقاومة.

*** كبار العلماء والمعلمين:**

تميزت الفترة الحديثة بالجزائر بروز عدد من العلماء والمدرسين والفقهاء، وقد حضيت هذه الفئة بالاحترام والتقدير من طرف المجتمع الجزائري بكل أطيافه بسبب تفانيهم لخدمة العلم والثقافة. **ويقول أبو عبد الله بن القاسم بن زاكور في حق العلماء (... عزار أعلام ينجلي بهم الظلام وشموس أئمة تنفرج بهم كل غمة وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة من رجال كالجبال أخيار كالأقمار فاهتدت بأنوارهم السنة...).**

بالتوفيق